البحث التاسع عشر

الروح الإنسانية الناطقة وما قد يفهم في بقائها بعد الموت

وفي معنى قوله تعالى (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين)

إن روح الإنسان الناطقة هي باقية خالدة. وإنها غير الجسم أما كونها غير الجسم فلأننا نرى أن الجسم يضعف وسمن ويمرض ويصح ويتعب ويستريح بل أحيانا تقطع اليد والرجل وتعمى العين وتصم الأذن ويبكم اللسان وتختل الأعضاء بمرض الفلج مثلا وينقص الجسد بالكلية والروح مع ذلك هي هي باقية على حالتها الأصلية لا يعترها نقص ولا اختلال في مداركها الروحانية ولا تمرض بمرض الجسد ولا تصح بصحته ولا يعتريها أي تغير عند تغير الجسد كما يقول البعض أو يعتريها شيء من التغير كما يقول البعض الآخر وعلى كلا القولين فلا يشك أحد في أنها غير الجسد.

وأيضا أننا نرى الروح لها تصرفات وأعمال بدون الجسد فهي في حالة النوم تنظر بدون عين وتسمع بدون أذن وتتكلم بدون لسان وتمشي بدون قدم وتجوب الشرق والغرب والجسم نائم في محل مخصوص فتراها تتنعم في بساتين الشام مثلا وجسمها في بيت صغير بمصر، وتتألم بأنواع الآلام في العراق وجسمها في الحجاز وهكذا مما يدل على أنها غير الجسم.

وأما كونها باقية خالدة فلأنه ثبت بالدليل العقلي أنها جوهر مجرد عن المادة بسيطة لا تركيب فيها ولا تجزئ حتى تنحل إلى تلك الأجزاء وليس حالة في جسم ما بل هي قائمة بنفسها متصلة بالجسم مجرد اتصال فقط متعلقة به تعل العاشق بالمعشوق والجواهر البسيطة المجردة عن المادة لا تنحل ولا تعدم شخصيتها بعد وجودها، وها نحن نرى أن بعض العلوم الحديثة كعلم استحضار الأرواح تؤيد بقاء الروح الناطقة بذاتها وشخصها، وإذا كنا نرى ونشاهد الآن أن الصوت والكلام الذي هو اثر من الآثار يحدثه الحلق واللسان والشفتان ويخرج من الفم في الهواء تبقى ذاتيته وتحفظ شخصيته في الفونوغراف أجيالا طوالا وغن العلماء يبحثون عن صوت داود ونغماته في الهواء، فما بلاك بالروح التي هي المؤثرة في كل أعمال الجسم التي جملتها الصوت والكلام الذي بقيت ذاتيته وحفظت شخصيته وحينئذ فبقاء ذاتية الروح وحفظ شخصيتها أولى وأقرب للعقل.

وأيضا من المعلوم أن وجود الأثر يدل على وجود المؤثر كوجود ضوء النهار الدال على وجود الشمس ومتى انعدم المؤثر انعدم الأثر إذ لا ينشأ الأثر من العدم الصرف فوجود أثر فعال في المجتمع لروح إنسان بعد موته دليل على بقاء روحه في المجتمع بعد الموت. وها نحن نرى مثلا أن آثار روح محمد صلى الله عليه وسلم وسلطته الروحية وتصرفها ونفوذها في العالم حتى على الملوك لا تزال باقية ولن تزال إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين، وهذا دلل على بقاء روحه وخلودها وهكذا روح إبراهيم مثلا وموسى وعيسى وروح كل ذي أثر نافع، وهكذا أيضا روح كل ذي أثر مضر كل بحسبه، ولكننا لا نرى لأي كائن من الكائنات سواء كان جمادا أو نباتا أو حيوانا أثرا وحكما باقيا بعد انحلال أعضائه وتلاشي أجزائه غلا للحقيقة الإنسانية والروح البشري فغنها تبقى وتستديم آثاره ويبقى نفوذه وتصرفه بعد انحلال التركيب وتفرق الأعضاء وتشتت الأجزاء وهذا دليل على بقاء روحه بعد موته دن غيره.

وبعضهم يفسر بقاء روح الإنسان الناطقة ببقاء نفس الآثار الفعالة والأعمال الخالدة كالتعليم والتأليف والاختراعات حسنة كانت أو سيئة كل بحسب عمله وأثره. ويقول بعضهم أن معنى بقاء نفس الروح وخلودها إنما هو بقاء وخلود الروح الكلية العامة التي هي مع الأجساد كالشمس مع الأرض ينتشر شعاعها على المواضع فيأخذ كل موضع نصيبه على قدره فكذلك الروح العامة التي هي الجوهر المجرد القائم بنفسه فإن كل جسم من أجسام الإنسان يأخذ من شعاعها نصيبه على قدر استعداده وقبوله فأول ما تنفخ فيه الروح وهو في بطن أمه يأخذ منها على قدره وكلما كبر جسمه كبرت روحه وكل ما كان صفاء عقله وقلبه أشد وأكثر كان حظه من هذه الروح الناطقة أوفى وأوفر ولكن لا ينقص من جوهر هذه الروح شيء كما لا ينقص من جوهر الشمس شيء بانبثاق أنوارها على الكائنات فهذه الروح الكلية العامة لا شك أنها باقية خالدة لأنها جوهر مجرد عن لمادة متصل بالإنسان ومتعلق به مجرد اتصال وتعلق فقط.

وقال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ما نصه (قال بعض العلماء الباحثين في الروح أن الروح إنما تقوم بجسم لطيف أثيري في صورة هذا الجسم المركب الذي يكون عليه الإنسان في الدنيا. وبواسطة ذلك الجسم الأثيري تجول الروح في هذا الجسم المادي فإذا مات المرء وخرجت روحه فإنما تخرج بالجسم الأثيري وتبقى معه وهو جسم لا يتغير ولا يتبدل ولا يتحلل.

وأما هذا الجسم المحسوس فإنه يتحلل ويتبدل في بضع سنين. ويقرب هذا القوم من قول الإمام مالك رحمه الله حيث قال (أن الروح صورة كالجسد) أي لها صورة وما الصورة إلا عرض وجوهر هذا العرض هو الذي سماه العلماء بالأثير. وإذا كان من خواص الأثير النفوذ في الأجسام اللطيفة والكثيفة كما يقولون حتى أنه هو الذي ينقل النور من الشمس إلى طبقة الهواء فلا مانع أن تتعلق به الروح المطلق في الآخرة ثم يحل بها جسما آخر تنعم به وترزق سواء كان جسم طير كما يشير إليه الحديث أو غيره) انتهى كلام الأستاذ الإمام.

ما افهمه في كيفية بقاء الروح الإنسانية بعد الموت

وبينان أن عالم الأرض يجتمع بعوالم السموات

أقول أن كثيرا من آيات القرآن الكريم تدل على أن الله تعالى خلق أفلاكا كثيرة سابحة في الفضاء سائرة في أجواء السماء مملوءة بعوالم كثيرة وبدواب تدب عليها كما تدب دواب الأرض على الأرض وتدل أيضا على أنه تعالى يجمع دواب الأرض بدواب السماء متى شاء وذلك بنص قوله تعالى في سورة الشورى: (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيها من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير).

وحينئذ فما المانع من أن يقال أن أرواحنا بعد موت هذه الأجسام الأرضية يرسلها الله تعالى إلى أحدى هذه العوالم الأخرى ويخلق لها جسما ملائما ومناسبا لبيئة الكوكب والعالم الذي ستحق الوجود فيه متنعمة أو متعذبة حسب أعمالها التي عملتها في الأرض وحسب استحقاقها ودرجتها من ذلك العمل.

وهذه هي آخرة الإنسان بعد موته كما يشير على ذلك الحديث الشريف حيث يقول (من مات فقد قامت قيامته) وحينئذ فمعنى المعاد والبعث على فهمنا هذا هو انتقال روح الإنسان الأثيرية من حالة وبيئة على حالة وبيئة أخرى ومن كوكب إلى كوكب آخر أي من كوكب الأرض إلى أحدى الكواكب الأخرى التي خصه الله بها وأعطاه جسما ملائما وموافقا لها، فإن كانت أعمال الإنسان في الأرض طيبة حسنة فإنه ينتقل إلى بيئة وكوكب فيه السعادة والفرح والهناء، والرقي والعظمة والرخاء وهو ما يسمى في عرف الشرع بالجنة، وإن كانت أعماله في الأرض سيئة قبيحة فإنه ينتقل إلى بيئة وكوكب فيه الشقاء والهم والتعب، والكدر والحزن والنصب وهو ما يسمى في عرف الشرع بجهنم أو النار. وهذه البيئة وهذا الكوكب لا يمكن للإنسان وهو في الأرض أن يقف على كنهه وحقيقته ولا أن يفهم أو يعرف منه شيئا.

ومما يدل على رأينا هذا قوله تعالى: (نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون) حيث تفيد هذه الآية أن الإنسان بعد موته ينشئه الله تعالى بجسم آخر في عالم آخر لا يعلمه في حياته الأرضية وإن كان سيعلمه عند انتقاله إليه فصاحب الأعمال الحسنة ينتقل إلى كوكب السعادة والترفيه وعندها فقط يعلم بيئته ومقامه ونشأته الأخرى التي ما كان يعلمها في نشأته الأولى. وذلك كالجنين الذي ما كان يعلم وهو في بطن أمه شيئا من حياته في الدنيا بعد ولادته. وصاحب الأعمال السيئة ينتقل إلى كوكب الشقاء والتعاسة فيعلم حينئذ فقط بيئته ومقامه ونشأته الأخرى كما كان قد علم نشأته الأولى بعد أن كان جنينا لا يعلم منها شيئا. وليس هناك مانع عقلي أو شرعي يمنع من كون كوكب السعادة والنعيم قد عبر عنه في لسان الشرع بالجنة وكوكب الشقاء والعذاب قد عبر عنه بجهنم أو النار أو الجحيم كما يقال مثلا بلد السعادة أو بلد الشقاء باعتبار ما فيها من النعيم أو العذاب وقد يقال أيضا أن الأرواح بعد موت أجسامها الأرضية تبقى في أجسامها الأثيرية متنعمة أو معذبة وتجول في محيطنا الأرضي أو في محيط مجموعتنا الشمسية لا تخرج عن ذلك بحيث يمكن استحضارها كما يفعل علماء استحضار الأرواح وبحيث تزور ديارها وقبورها كما ورد في بعض الآثار وجونا الأرضي أو جو مجموعتنا الشمسية لا يضيق بهذه الأرواح بأجسامها الأثيرية مهما تكاثرت وتجمعت من ابتداء خلقة الإنسان إلى النهاية لأنها جواهر مجردة أثيرية لا يضيق بها الجو كما لا يضيق دماغنا الصغير بالمعلومات مهما تكاثرت وكما لا يضيق الجو أيضا بالأصوات الغير محصورة

التي يلتقط الراديو شيئا منها متى وجه على موجة مخصوصة كموجة لندن أو مصر مثلا كما يتوجه الذهن إلى شيء مخصوص من المعلومات الكثيرة الموجودة في الدماغ.

وعلى كل فإن جميع هذه الأقوال إنما هي أفاهم واحتمالات فقط. أما لحقيقة في أمر الروح بعد الموت وفي الآخرة فهي من الأمور الغيبية التي لا يصل العقل البشري على معرفتها كما قال تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا). هذا ما يتعلق بالروح الإنسانية الناطقة.

الروح الحيوانية والعناصر الكلية

أما الروح الحيوانية في الإنسان وغيره المسماة بالنفس النامية الحساسة فهي عنصر من عناصر الحيوان مطلقا ولكنها ألطف وأرق وأرقى كثيرا من عنصر الحرارة التي هي أرق وألطف من عنصر الهواء الذي هو أرق وألطف من عنصر الماء الذي هو أرق وألطف من عنصر التراب، فالتراب أثقلها وأكثفها، والروح الحيوانية أخفها وأفضلها، وهذه العناصر الكلية العامة بما فيها الروح الحيوانية النامية يوجد خلاف في بقائها وخلودها أو عدم بقائها وخلودها. مما لا يتسع هذا المكان لبيانها.

اختلاف العلماء في المراد من المعاد

إن الناس قديما وحديثا قد اختلفوا فيما هو المراد من (المعاد) اختلافا كثيرا ويمكنني الآن أن ألخص أقوالهم وأنظمها في آراء ثمانية "خمسة أخروية وثلاثة دنيوية " أما الخمسة الأخروية فهي:

١. معاد أخروي روحي فقط.
٢. معاد أخري جسمي فقط أي أن الروح جسم أيضا أي جسم أثيري.
٣. معاد أخروي روحي وجسمي شخصيين.
٤. معاد أخروي روحي شخصي وجسمي نوعي.
٥. لا معاد في الآخرة أصلا لا روحيا ولا جسميا وإن المارد من المعاد الوارد في الشرائع إنما هو عودة الجسم بالموت إلى التراب كما كان أولا.

هذه هي الآراء الخمسة المتعلقة بالآخرة. وأما الثلاثة المتعلقة بالدنيا فهي:

١. معاد دنيوي روحي شخصي وجسمي نوعي وهو مذهب التناسخ
٢. معاد دنيوي روحي وجسمي نوعيين أي رجوع خصص من الروح الكلية العامة إلى أجسام أخرى غير الأجسام الأولى بمعنى أنه كلما خلق جسم جديد من أجسام الناس تحل فيه حصة جديدة من الروح الكلية العامة تقوم بتنظيم شؤونه.
٣. معاد دنيوي ولكنه معنوي وهو ما يفهم من كلام بعض أهل الفلسفة الحديثة.

أما الرأي الأول الأخروي وهو أن المعاد روحي فقط في الآخرة فهو ما يفهم من كلام الفلاسفة الإلهيين القائلين بأن النفس الناطقة جوهر مجرد عن المادة بسيط لا تركيب فيه ولا تجزء ولا يقبل الانحلال ولا العدم بعد وجوده فهي باقية خالدة بعد الموت وهي وحدها تشعر في الآخرة بملذات أعمالها الحسنة وبآلام أعمالها القبيحة بدون احتياجها في ذلك على جسم. وقد جرى على ذلك بعض فلاسفة الإسلام كابن سيا وابن رشد فعندهم أن الروح لا ترجع إلى هذا الجسد بل أن المعنى المعاد هو رجوع النفس إلى حيث كانت أولا أي قبل أن تلبس هذا الجسد وقد أشار إلى هذا المعنى الشهاب السهروردي بقوله:

خلعت هياكلها بجرعاء الحمى وصبت لمغناها القديم تشوقـــــا

وتلفتت نحو الديار فشاقهـــــا ربع عفت إطلاله فتمزقـــــــا

وقفت تسائله فرد جوابهـــــا رجع الصدى أن لا سبيل إلى اللقا

فكأنها برق تألق بالحمـــــى ثم انطوي فكأنه ما أبرقـــــــــا

وأما الرأي الثاني وهو أنه معاد أخروي جسمي فقط فهو ما يفهم من كلام كثير من المتكلمين القائلين بأن النفس الناطقة إنما هي حسم مادي داخل هذا الهيكل الخصوص وعلى صورته وهذا هو مذهب الإمام مالك رضي الله عنه وقد أشار إليه صاحب الجوهرة بقوله:

لمالك هي صورة كالجســـد فحسبك النص بهذا السنـــــــد

ويؤيد هذا الرأي العلوم الروحية الحديثة المتعلقة باستحضار الأرواح حيث قرر أربابها أن الروح هي جسم أثيري داخل الجسم الطبيعي وعلى شكله وهيئته وأنها من مادة الأثير المكتشف حديثا والذي يقال أنه مادة الكون الإنشائية وإن كانت أعيننا لا يمكن أن تراه.

وأما الرأي الثالث وهو أنه معاد أخروي روحي وجسمي شخصيين فهو ما يفهم من كلام جمهور المسلمين القائلين بأن النفس الناطقة ليست مادة على صورة الجسد وإنما هي جوهر مجرد عن المادة ولكنه لا يعمل عملا إلا بواسطة المادة والجسم ولا تدرك ألما ولا لذة إلا به وإن جسمها الدنيوي سيعود بذاته وعينه وشخصه في الآخرة كما تعود هي شخصها كذلك.

وأما الرأي الرابع وهو أنه معاد أخروي روحي شخصي وجسمي نوعي أي معاد بروح شخصية وبجسم نوعي فهو ما يفهم من كلام كثير من العقلاء المفكرين القائلين بأن شخص الجسم الدنيوي ينعدم وتتفرق أجزاؤه في أجسام أخرى فلا يعود بعينه وشخصه ولكن الله تعالى يخلق لشخص هذه الروح الباقية جسما آخر يلائم بيئة الآخرة وقد عرفت مما ذكرناه لك سابقا أن هذا القول هو ما يفيده القرآن والحديث والتوراة والإنجيل، ويؤيده العقل والطب والبرهان والدليل وهو أيضا رأي وسط ليس فيه إفراط المقلدين ولا تفريط المنكرين وخير الأمور الوسط.

وأما الرأي الخامس وهو أنه لا معاد في الآخرة أصلا لا روحيا ولا جسميا فهو ما يفهم من كلام الفلاسفة الماديين الأقدمين القائلين بأن النفس الناطقة ليست هي الا مزاجا خاصا بالجسم المخصوص فمتى مات وانحل هذا الجسم فلا يمكن عادة هذا المزاج الخاص بعينه الذي هو الروح عندهم كما أنه لا يمكن إعادة هذا الجسم المخصوص بشخصه بعد تفرقة وتلاشي أجزاءه في أجزاء أخرى، فمعنى المعاد على قول هؤلاء إنما هو عودة الجسم بالموت إلى التراب الذي خلق منه ورجوعه إليه ليتكون ويخلق منه شيء آخر نباتا أو غيره حسب ما يريد الله، وهذا هو معنى الرجوع إلى الله تعالى أي رجوع الإنسان غليه ليخلقه مرة أخرى كما يشأ. هذه هي الآراء الخمسة المتعلقة بالآخرة.

وأما الآراء الثلاثة المتعلقة بالدنيا فالرأي الأول منها وهو أنه معاد دنيوي روحي شخصي وجسمي نوعي فهو مذهب أرباب التناسخ المعروف. وأما الرأي الثاني وهو أنه معاد دنيوي روحي وجسمي نوعيان. فهو ما يفهم من كلام الذين يعتقدون أن المراد من الأولى والآخرة إنما هي أولى الشخص وأخرته في الدنيا وأولى الأمة وآخرتها كذلك وهؤلاء ينكرون الآخرة والثواب والعقاب ويقولون (ما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وهكذا إلى مالا نهاية).

وأما الرأي الثالث وهو أنه معاد دنيوي ولكنه معنوي فهو ما يفهم من كلام بعض أهل الفلسفة الحديثة حيث يقولون أن معنى العودة والرجعة هي رجوع التجليات الروحانية والفيوضات الإلهية والتعاليم السماوية والمظاهر النبوية أي أن ظهور كل نبي من الأنبياء ورسول من الرسل لهداية الناس وإرجاعهم إلى معرفة الحق تعالى هو رجوع وعودة للناس إلى الفطرة التي فطر الناس عليها من الإقرار بربوبيته والإسلام إليه وتجديد لهم بذلك وخلق لهم خلقا جديدا وولادة لهم ولادة روحانية جديدة أي أنهم كانوا أمواتا بالجهل والرذائل والأخلاق الفاسدة والأعمال السيئة بل كانوا عدما بها فأصبحوا ببعثة الرسل فيهم أحياء موجودين بحياة جديدة هي حياة الرقي والسعادة وحياة العلم والأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة والأعمال الصالحة ورجعوا بذلك إلى الله تعالى وبعثوا بها بعثا جديدا ووجدوا بها من العدم إلى الوجود، فالبعث والرجعة تتحقق في كل ظهور من الظهورات الإلهية وفي كل دور من الأدوار النبوية فمعنى البعث عند هؤلاء هو بعث الأمة في حياة جديدة سعيدة بظهور نبي فيهم وبعثه إليهم ومعنى معادها عودتها إلى مجد سابق قديم بعودة المظاهر الإلهية فيها. وقد يستدل على ذلك بقوله تعالى (وقال الذين أوتوا العلم

والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون) أي أن يوم ظهور النبي (ص) فيكم هو يوم بعثكم بعد أن كنتم قد لبثتم في كتاب الله السابق مدة طويلة مهملين له غير عالمين بمجيء هذا اليوم. وهذا المعنى لا يمنع من أن الروح لا بد وأن تكون بعد الموت إما في نعيم أو عذاب حسب أعمالها وإنها أما أن تترقى في درجات الكمال وإما أن تتردى في دركات الهوان. وحينئذ فهؤلاء قد لا ينكرون الآخرة ولا نعيمها وعذابها وإنما يفسرونها بغير ما يفهمه كثير من الناس ولا يسمونها معادا وبعثا لأن المعاد والبعث عندهم هو بعث الأمم وعودتها إلى إتباع مظاهر الله وأنبيائه الكرام فيما يكون فيه سعادتهم الدنيوية والآخروية كما قدمنا.

وقد يؤيد ذلك بعض الآيات القرآنية الواردة في البعث والخلق الجديد كقوله تعالى (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون)، فإن هذه الآية خطاب لليهود وامتنان من الله عليهم حيث بعثهم بعد موتهم أي أحياهم بإرجاعهم إلى بلادهم وإلى عزهم ومجدهم بعد سبيهم وإذلالهم وقوله: (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم)، أي يحييكم بالإيمان والأعمال الصالحة. وقوله: (إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله) أي يبعثهم باستجابتهم لله ورسوله والإيمان بهما. وكقوله تعالى: (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد)، أي في خلق جديد باتحادكم واجتماعكم بعد تفرقكم وتمزقكم. وقوله (وقالوا ءإذا ضللنا في الأرض ءإنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون)، أي في خلق جديد من الإيمان والهداية ولقاء الله بعد الكفر والضلالة والبعد عن الله، إلى غير ذلك من الآيات الأخرى التي تفيد أن المراد من الحياة والموت ومن البعث والخلق الجديد أمور حاصلة في الدنيا. على أن تفسير هذه الآيات ونحوها بما هو في الدنيا لا ينافي تفسيرها بما هو في الآخرة أيضا.

الإماتة مرتين والإحياء مرتين

في قوله تعالى ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين

قال تعالى في سورة المؤمن: (إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون. قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل. ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير. هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر غلا من ينيب. فادعو الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده).

أجمع المفسرون على أن مناداة الكافرين بالمقت، وقولهم (أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين، واعترافهم بذنوبهم وسؤالهم سبيلا إلى الخروج إنما هو حاصل يوم القيامة في الآخرة لا في الدنيا. وقال أكثرهم أن المراد بالإماتة الأولى هي خلقهم ميتين حال ما كانوا نطفة وعلقة) وبالثانية إماتتهم عند انقضاء آجالهم. وبالإحياء الأولى إحياءهم بنفخ الروح فيهم وهم في الأرحام. وبالثانية إحياءهم بإعادة أرواحهم إلى أبدانهم للبعث يوم القيامة.

واعترض على هذا التفسير بأن لفظ (الإماتة) معناه تصيير الشيء ميتا بعد أن كان حيا لأن صفة الأفعال والتفعيل موضوعات للتصيير فلا بد في تحقيق معنى الإماتة من سبق الحياة ولا سبق هنا.

وقال بعضهم المراد بالإماتة الأولى إماتتهم عند انقضاء آجالهم. وبالإحياءة الأولى احياءتهم في القبر للسؤال. وبالإماتة الثانية إماتتهم بعد هذه الإحياءة إلى قيام الساعة. والإحياءة الثانية إحياءتهم للبعث.

واعترض عليه أيضا بأنه يلزم على هذا القول أن تكون الإحياءات ثلاثة والآية إنما أثبتت إحياءتين اثنتين. وعليه فتفاسير المفسرين هذه بعيدة عن معنى الآية، خصوصا وأنهم لم يتمكنوا بوجه معقول من تطبيق بقية هذه الآيات على ما يقولون.

ما أفهمه في معنى الإماتة والإحياء مرتين

في هذه الآية

أقول أن من يتأمل في هذه الآيات يجد أنها تتحدث عن حالة الكافرين في زمن الإسلام من أن هؤلاء الكافرين ينادون في الدنيا بأن مقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون.

فأجابوا على هذا النداء بقولهم (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا).

وعلى ذلك يكون المراد من الإماتة والإحياء في هذه الآية الإماتة والأحياء المعنويين الروحانيين لا الجسمانيين، أي أن الإماتة تكوون بالكفر والجهل والضلال وفساد الأحوال وسوء المآل ونحو ذلك وإن الإحياءة تكون بنقيض هذه الأمور.

وإنني أفهم في معنى هذه الإماتة والإحياء فهمين، الأول أن الإماتة الأولى هي الإماتة قبيل ظهور الإسلام حينما كان الناس في فوضى وجهالة وضلالة وكفر وإشراك بالله بعد أن كانوا أحياء بهداية الرسل السابقين قبل الإسلام. وعليه فيكون لفظ (الإماتة) على معناه الوضعي أي مسبوقا بالحياة. وإن الإحياءة الثانية هي احياءتهم بالإسلام وإن الإماتة الثانية هي إماتة الذين كفروا بعد ظهور الإسلام كما قال تعالى عنهم (إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون) فدعاؤهم غلى الإيمان إحياء، وكفرهم إماتة. فهذه هي الإماتة مرتين والإحياءة مرتين.

وترتيبها هكذا (إحياءة أولى) بهداية الرسل الأولين حينما كان الناس قبل إرسال الرسل في موت الجهل والضلال وعدم معرفتهم بالله الواحد القهار (إماتة أولى) بترك الناس تعاليم الرسل الأولين ورجوعهم إلى جهلهم وضلالهم القديم (إحياءة ثانية) بالإسلام وبظهور محمد عليه الصلاة والسلام الذي ناداهم إلى الإيمان ودعاهم إلى صالح الأعمال (إماتة ثانية) بكفر المشركين حينما دعوا غلى توحيد الله كما قال تعالى في هذه الآية (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا)

وإنما جعلنا حالة الناس مع الرسل الأولين كلهم ما عدا محمدا حالة واحدة بإحياءة وإماتة وجعلنا حالتهم مع محمد حالة أخرى بإحياءة وإماتة لأن محمدا لما كان خاتم الرسل وكانت شريعته خاتمة الشرائع فقد أصبحت الحالة في زمنه مستقلة متميزة عن الحالة الأولى حيث أن الحالة الأولى كانت حالة بدائية بسيطة لم يكمل فيها النمو العقلي والرقي الروحي فجعلت حالة مستقلة وجعلت الحالة التي ترقى الناس فيها واستعدوا لقبول أي تفكير وإصلاح حالة أخرى.

والفهم الثاني الذي فهمناه في معنى الإماتة والإحياءة المذكورتين في هذه الآية يختلف عن الفهم الأول في ترتيب الإماتتين والأحياءتين وفي بعض معانيها وهي كما يلي (إماتة أولى) بترك تعاليم الرسل الأولين وظهور محمد (ص) الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن الشقاوة والضلالة إلى السعادة والهداية (إماتة ثانية) بترك الناس تعاليم الإسلام وانقيادهم إلى أهوائهم وشهواتهم كما هو حاصل الآن (حياءة ثانية) بظهور المهدي المنتظر الذي يأخذ بأيدي الناس إلى تعاليم الإسلام القويمة والذي يخرج المسلمين من ظلم الأقوياء المعتدين ويحررهم من استعباد الغربيين المستعمرين.

والدلائل التي تشير إلى ما أقوله من أن الإماتة والإحياءة في هذه الآية هما معنويتان روحانيتان لا جسمانيتان هي خمسة دلائل مأخوذة من نفس هذه الآيات (الأول): أنها إنما تتكلم عن الكفر والإيمان الذين هما موت وحياة معنويات حيث قالت (إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون) لا عن الموت والحياة الجسديين الماديين.

الثاني: أنها قد فرعت على الإماتة والإحياء الاعتراف بالذنوب حيث قالت (فاعترفنا بذنوبنا) والاعتراف بالذنوب إنما يناسب الموت والحياة الروحية ويتفرع عنها.

الثالث: أنها جعلت الإماتة مرتين والإحياء مرتين سببا في اعترافهم بذنوبهم أي أنهم لما تكررت عليهم مضار الموت ومنافع الحياة بهذا المعنى مرتين اعترفوا بذنوبهم لأن الاتعاظ بالشيء والاعتراف بضرره أو منفعته لا يحصل بمرة واحدة فقط وإنما يحصل بتكراره مرة بعد أخرى، وحينئذ فقد ظهر وجه كون الموت والحياة مرتين بهذا المعنى سببا في الاعتراف بالذنوب والخطايا حيث بتكرار ذلك عليهم تحققوا ما ترتب على هذا الموت من المصائب والرزايا والبلايا وسوء الحال الناشئين من الجهل والضلال وتحققوا أيضا ما ترتب على هذه الحياة من السعادة والراحة والهناء، ومن الحرية والاستقلال وسعة العيش والرخاء، ولذلك طلبوا من الله تعالى وسألوه هل من سبل إلى الخروج مما هم فيه من الجهل والضلال ومن الاستعباد والاضمحلال ومما هم عليه من الذنوب والخطيآت التي اعترفوا بها حيث قالوا (فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل)

فأجابهم الله بقوله (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير) أي أنكم تعودتم على أنه إذا دعى الله وحده تكفرون به وإن يشرك به تؤمنوا بهذا الإشراك فإذن الحكم فيكم لله العلي الكبير الذي لا بد وأن يعاملكم حسب ما تفعلون بأنفسكم.

أما على تفسير المفسرين من أن الموت والحياة هنا جسديان فلا يظهر وجه تفريع الاعتراف بالذنوب على الموت الجسدي مرتين وعلى الحياة الجسدية مرتين إلا بتكليف وتمحل زائدين كما لا يظهر أيضا وجه جعل هاتين المرتين من الموتتين والحياتين سببا في الاعتراف بالذنوب إلا بتكلف وتمحل لا لزوم له.

الرابع: أنها جعلت جواب سؤالهم من الله عن وجود سبيل للخروج مما هم فيه أنهم إذا دعى الله وحده يكفرون به وإذا دعى مع شركائهم يؤمنون بذلك وهذا يدل على أن الكلام في هذه الآيات إنما هو في الإيمان بالله والكفر والإشراك به الذين هما الحياة والموت الروحانيان.

الخامس: أنها تقول في آخرها (هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) وهذا يفيد أن هذه الآيات من أولها إلى آخرها إنما تعني بالإماتة الكفر بالله وبالأحياء الإيمان الخالص له وإن ما في هذه الآيات من مناداة الكافرين بالمقت ومن قولهم (أمتنا اثنتين واحييتنا اثنتين) ومن اعترافهم بذنوبهم ومن سؤالهم سبيلا غلى الخروج مما هم فيه إنما هي حاصلة في الدنيا لا أمور سوف تحصل في الآخرة يوم القيامة كما يدعي المفسرون.

الآيات القرآنية التي تشير إلى المهدي

وأما الدلائل التي تشير إلى ما قلناه من أن المراد من الإحياءة الثانية هي ظهور المهدي فهي أربعة أولها إن صدر هذه الآيات بقول (إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون) حيث أن تعبير هذه الآية بصيغة المضارع في (ينادون) وفي (تدعون) التي تدل على الاستقبال والتجدد يفيدان أن هذا النداء وهذه الدعوة يكونان في المستقبل بعد محمد (ص) أي عند ظهور مهدي الإسلام.

ثانيا:إن آخرها يقول (رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عبادي) فإن التعبير بصفة المضارع في قوله (يلقي الروح) الدالة على الاستقبال والتجدد يفيد أن الله تعالى سوف يلقي الروح بعد محمد (ص) على بعض عباده وما ذاك إلا المهدي المنتظر.

ولا يلزم من إلقاء الروح عليه أن يكون نبيا بل يصح أن يكون هذا الإلقاء على غير نبي قال تعالى (وأما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم) وقال أيضا (ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) وقال أيضا (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) فهذه الآيات تفيد أن الروح قد تكون على غير الأنبياء من المؤمنين المقربين.

ثالثا: قوله تعالى في آية أخرى (واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج) فإنه يفيد أن المنادي سوف يكون بعد محمد (ص) أي في الدنيا وإن ذلك هو يوم الخروج حسب قوله في الآية السابقة (فهل إلى خروج من سبيل) فهاتان الآيتان على معنى واحد يؤيد بعضهما بعضها في المعنى المراد من النداء ومن الخروج الذي قد يكون المقصود منهما نداء وخرج المهدي المنتظر.

رابعا قوله تعالى في آية أخرى أيضا (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون) فإن هذه الآية تفيد أن الموت الأول هو ما كان عليه الناس من الجهل والضلال والاضمحلال قبل الإسلام. وأن الإحياء الأول هو إحياء الناس بالإسلام حيث أعزهم الله به ونصرهم وصيرهم سادة العالم وجعلهم خير أمة أخرجت للناس. وأن الموت الثاني هو موتهم بتركهم تعاليم الإسلام وهداية القرآن وأن حياتهم الثانية هي حياتهم بظهور مهدي الإسلام في مستقبل الزمان. وقد يكون هناك آيات أخرى غير هذه تشير إلى المهدي قد تظهر لمن يتتبع آيات القرآن. وما قلناه في معنى الإماتة والإحياء هنا لا ينافي ما قاله المفسرون بل هما احتمالات فقط في معنى هذه الآيات.